العمارة العربية الاسلامية

م.م.علي سعد عبد الوهاب

المحاضرة الخامسة

جامعة المثنى

كلية الهندسة

قسم هندسة العمارة

العمارة العربية الاسلامية في عصورها الوسيطة , القرن (4-9) هـ / (10-15) هـ

وهناك عدة نقاط هامة تتصل بموضوع استخدام الإيوانات في تخطيط العمائر الدينية في العالم الإسلامي وتستحق الشرح والتوضيح نظراً للدور الخطير الذي لعبه الإيوان في العمارة الإسلامية وبخاصة في منطقتي الشرق الأدنى والأوسط من العالم الإسلامي .

وتتعلق أولى تلك النقاط بأصل الإيوان ومحاولات المستشرقين الباحثين في العمارة الإسلامية نسبته إلى الطراز الساساني ، وبخاصة أولئك الذين ساهموا في وضع موسوعة الفن الفارسي وذلك على زعم أن الساسانيين الذين حكموا العراق وفارس فترة تقرب من أربعة قرون (٢٦٢ ـ ٦٣٤ م) ، كانوا من الفرس ، وهو خطأ شائع تكشفه عدة حقائق : منها أن حاضرة أولئك الساسانيين كانت في المدائن المعروفة عند المؤرخين القدماء « بطيشفون » ويعرف موضعها الآن « بسلمان پاك » وتقع على بعد نحو ٣٠ كيلومتراً إلى الجنوب من مدينة بغداد ، وفي منطقة قريبة جداً من موضع بابل القديمة ، ومن موضع سلوقيا عاصمة السلوقيين الذين خلفوا الاسكندر في حكم فارس والعراق بعد قضائه على الأخامينيين الفرس ، والذين كانت حاضرتهم « پرسپوليس » بالقرب من مدينة شيراز على أرض فارس . ولو كانوا فرساً حقاً لما رضوا بترك بلاد أجدادهم في فارس واتخاذ أرض العراق مركزاً لحكم دولتهم التي شملت كلا من العراق وفارس .

ومن ناحية أخرى ، فإن الإيوان ليس ابتكاراً ساسانياً ، إذ ترجع أقدم أمثلة له إلى العصر البرثي وإلى القرن الأول الميلادي على الأقل ، ويشاهد في قصر في مدينة أشور (ش : ١١٢) يحيط بالفناء الأوسط فيه إيوانات أربعة ، كما توجد عدة أمثلة في مدينة الحضر (ش : ١١٣ ـ ١١٥)[٣٣] .

وأثبتت النقوش التي عثر عليها في أطلال مدينة أشور ومدينة الحضر أنه كان يسكنها قبائل عربية هم الذين قاموا ببناء مدينة الحضر ، وكان منهم قبيلة قضاعة وقبيلة بني عبيد في شمال العراق ، وكان يسكن جنوبها قبيلة المناذرة وغيرهم .

إذن ، فلا فضل للساسانيين ولا للفرس في ابتكار الإيوانات أو ابتكار التخطيط ذي الصحن الأوسط والإيوانات على جانب أو أكثر منه ، ومن المرجح أن يكونوا قد ورثوا الفكرة من البرثيين ، كما ورثوا مدينة المدائن حاضرتهم السابقة .

والنقطة الثانية ، أن الإيوان الذي وضع جهة القبلة في المدارس كان أكبر اتساعاً وعمقاً من سائر الإيوانات في الجوانب الأخرى ، باستثناء المدارس في الشام التي استبدل فيها إيوان القبلة بقاعة الصلاة المقفلة . وتتضح خاصية إيوان القبلة الكبير في المساجد الفارسية .

والنقطة الثالثة ، أن الإيوانات بل الجدران والأعمدة الغليظة في العمائر السلجوقية وما تلاها من عمائر في العصور الأخرى في فارس ، قد اتبع فيها الأسلوب العراقي من حيث استخدام عناصر وخصائص معمارية عراقية الأصل ، ومنها مادة البناء بالآجر الذي كان المادة الرئيسية في العراق ، بينما كان يتوفر كل

العمارة العربية الاسلامية في عصورها الوسيطة , القرن (4-9) هـ / (10-15) هـ

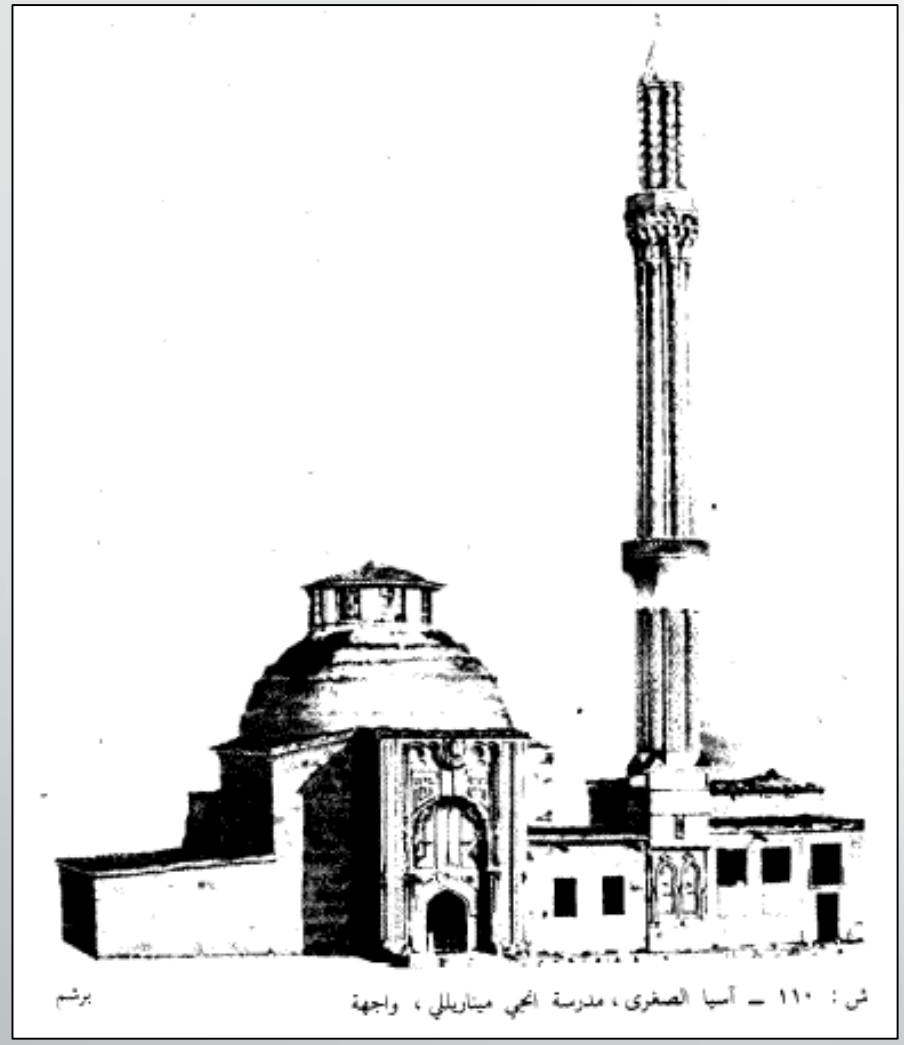

ش : ١١٠ ــ آسيا الصغرى ، مدرسة الخي مينارللي ، واجهة

برشم

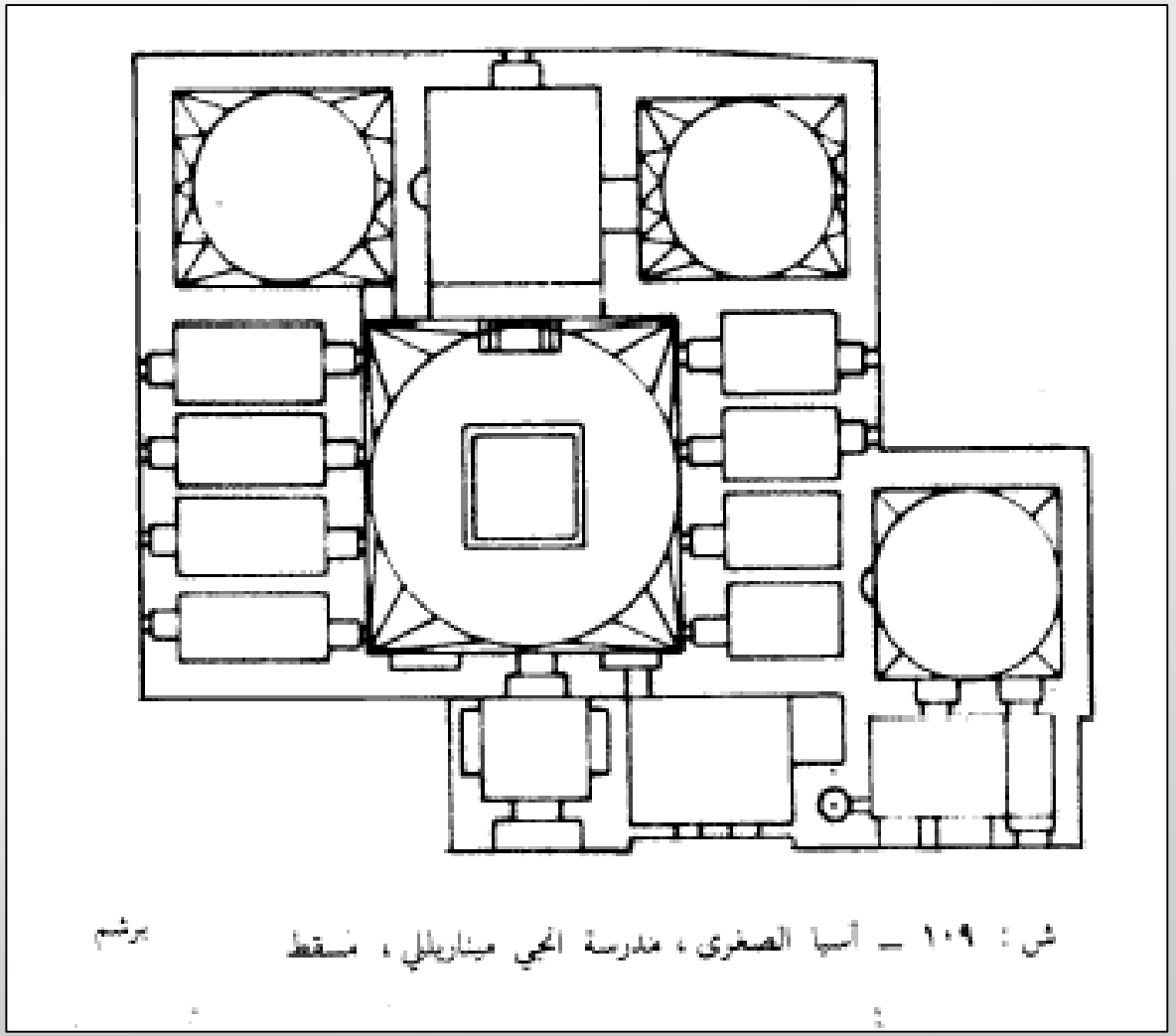

ش : ١٠٩ ــ آسيا الصغرى ، مدرسة الخي مينارللي ، مسقط

برشم

العمارة العربية الاسلامية في عصورها الوسيطة , القرن (4-9) هـ / (10-15) هـ

من الحجر والآجر في بلاد فارس ، ولكن المعماريين الفرس خضعوا للنفوذ المعماري العراقي وجعلوا الآجر المادة الرئيسية للبناء .

والنقطة الرابعة ، أن النموذج الذي يمتزج فيه الإيوانات مع الظلات والذي أشرنا إلى أنه لم يظهر إلا في فارس يرجح في رأينا أن يكون ابتكاراً عراقياً وليس فارسياً أمام الحقيقة التي تتمثل في اختفاء المساجد والمدارس من العراق في العصر السلجوقي ، والتي لم يصلنا منها مثل له قيمة علمية سوى مدرسة المستنصرية التي سبقت الإشارة إليها ، ولذلك فمن المحتمل أن يكون ذلك النموذج الذي يجمع بين الظلات والإيوانات ابتكاراً عراقياً ضاعت حلقاته من العراق ولكن سار على منواله الفرس مثلما ساروا على كثير من التقاليد العراقية القديمة الأخرى .

ومن البدهي أن تكون المساجد التي شيدت في كل من العراق وفارس قد تبع تخطيطها في العصور المبكرة النموذج النبوي ذي الصحن والظلات ، وأمثلتها كثيرة من تلك العصور ، ومنها مسجد الكوفة والبصرة (ش : ١١٦)(**) ، وجامع تاريك خانة في دمغان (ش : ١١٧)(**) ، وهي تقع في القطاع الشمالي الغربي من فارس ، وشيد ذلك المسجد في عصر مروان الثاني الأموي في عام ١٣٤ هـ (٧٥٠ م) ، وما يزال أغلبه قائماً ، ويتضح في تخطيطه شبه كبير بتخطيط جامع قرطبة الذي بناه عبد الرحمن الداخل بين معاوية (ش : ٥٩) ، إذ يشتركان في أن اتجاه البائكات في ظلة القبلة والوحيدة يسير في اتجاه عمودي على جدار القبلة ، وكذلك في عمل الرواق الأوسط أكبر عرضاً من الأروقة الأخرى على جانبيه ، وذلك تأكيداً لأهمية المحراب وللاتجاه نحو الكعبة المشرفة .

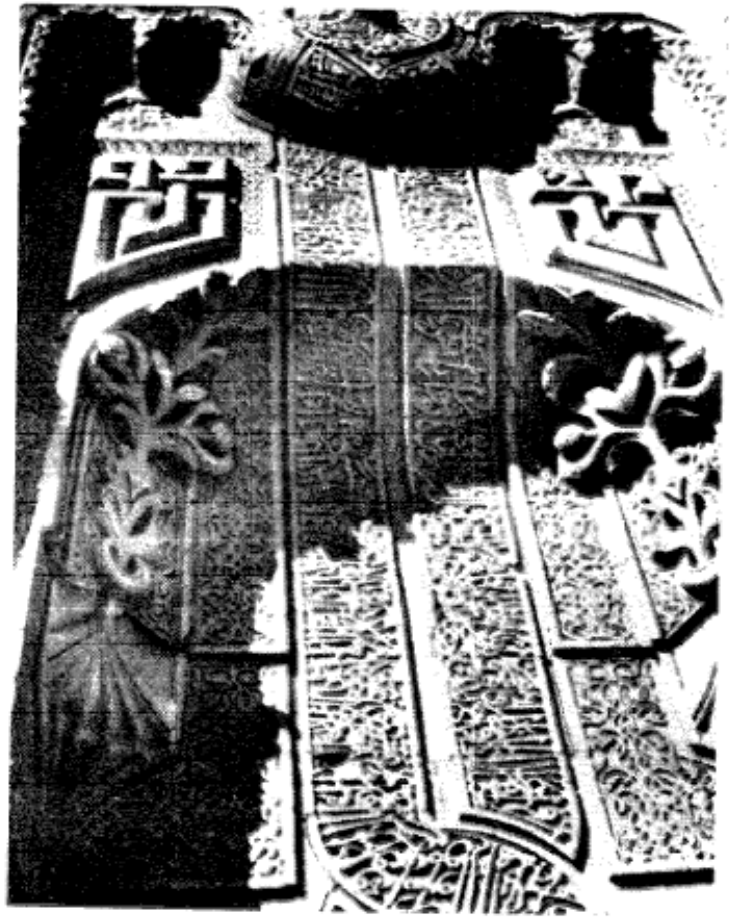

فاند برشم

ش : ١١١ ــ آسيا الصغرى ، مدرسة الخي مينارياللي ، تفصيل

العمارة العربية الاسلامية في عصورها الوسيطة , القرن (4-9) هـ / (10-15) هـ

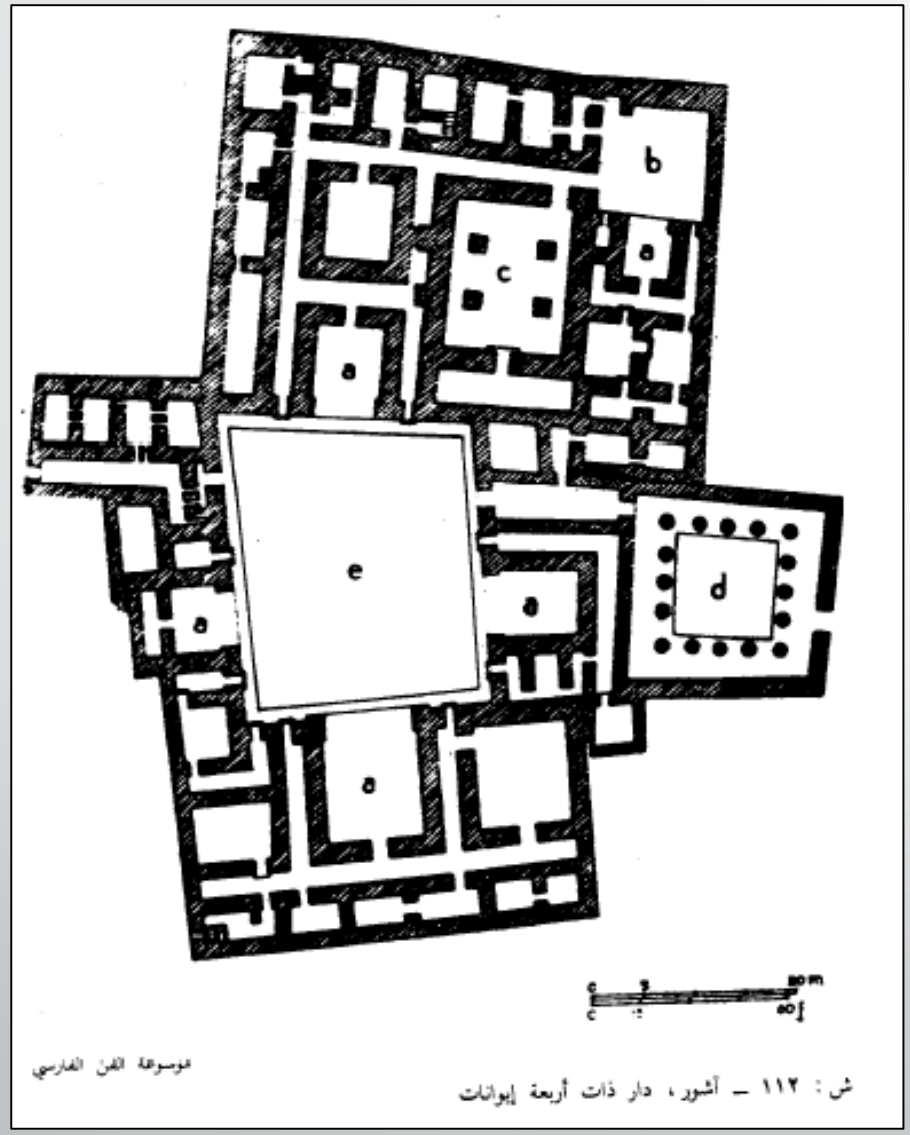

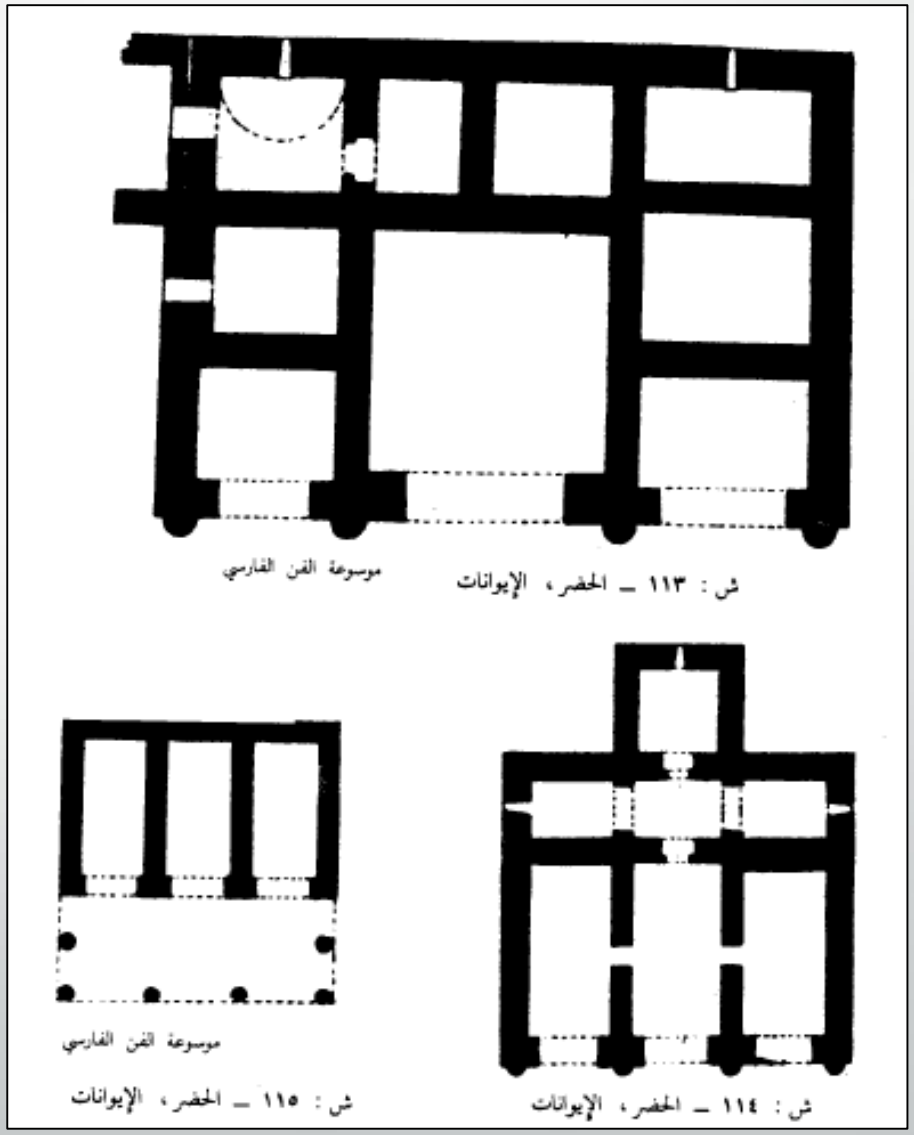

العمارة العربية الاسلامية في عصورها الوسيطة , القرن (4-9) هـ / (10-15) هـ

واستمر التخطيط النبوي هو النموذج التقليدي كما أشرنا ، وذلك في غضون العصر العباسي في جميع أقطار الدولة العربية الإسلامية إلى أن ظهرت وانتشرت منذ العصر السلجوقي فكرة بناء المدارس واستخدام الإيوانات فيها لجلوس الطلبة والمدرسين وتدريس العلوم على المذاهب السنية الأربعة . ولم يكتف السلاجقة ببناء تلك المدارس بل اهتموا بإضافة الإيوانات إلى مساجد كانت مشيدة من قبل على نظام الصحن والظلات . ومن أمثلة ذلك ، ما حدث في المسجد الجامع بأصفهان الذي كان مشيداً في موقعه الحالي مسجد وبجواره مكتبة ، وأدخل كل منهما في نطاق المسجد الحالي ، بعد عمل عدة تعديلات وإضافة الإيوانات في العصر السلجوقي وما بعده من عصور .

والنقطة الخامسة ، أن الإيوان لم يستخدم في أي من عمائر الغرب الإسلامي ، ولا نجد له مثلاً واحداً في المساجد أو المدارس أو المنازل أو غيرها . وهو أمر يدعو للدهشة إذا ما رأينا عناصر وخصائص معمارية كثيرة قد وفدت من الشرق الإسلامي وانتشرت بل واستوطنت ذلك الغرب منذ العصور المبكرة والوسيطة وأصبحت من مميزات ذلك الغرب .

* * *

وبالإضافة إلى التأثير العراقي ، الذي يتمثل في استعمال الإيوان في المدارس ثم في مساجد فارس في العصر السلجوقي ، فإنه يتمثل أيضاً في العصور السابقة ، ومنها تأثير سامرا الذي أشرنا إليه ، ويشاهد في العمارة والزخارف الجصية في جامع نايين من أواخر القرن ٤ هـ (١٠ م)[٣٧] .

كما يتضح التأثير العراقي مرة أخرى في تصميم المآذن ذات البدن المستدير (ش : ١٨٠ ـ ١٨٥) والأضرحة التي على هيئة برج مضلع الجوانب (ش : ٢١٤) أو مسقطه مسنن كالنجمة (ش : ٢١٤) ، وينتهي بعضها

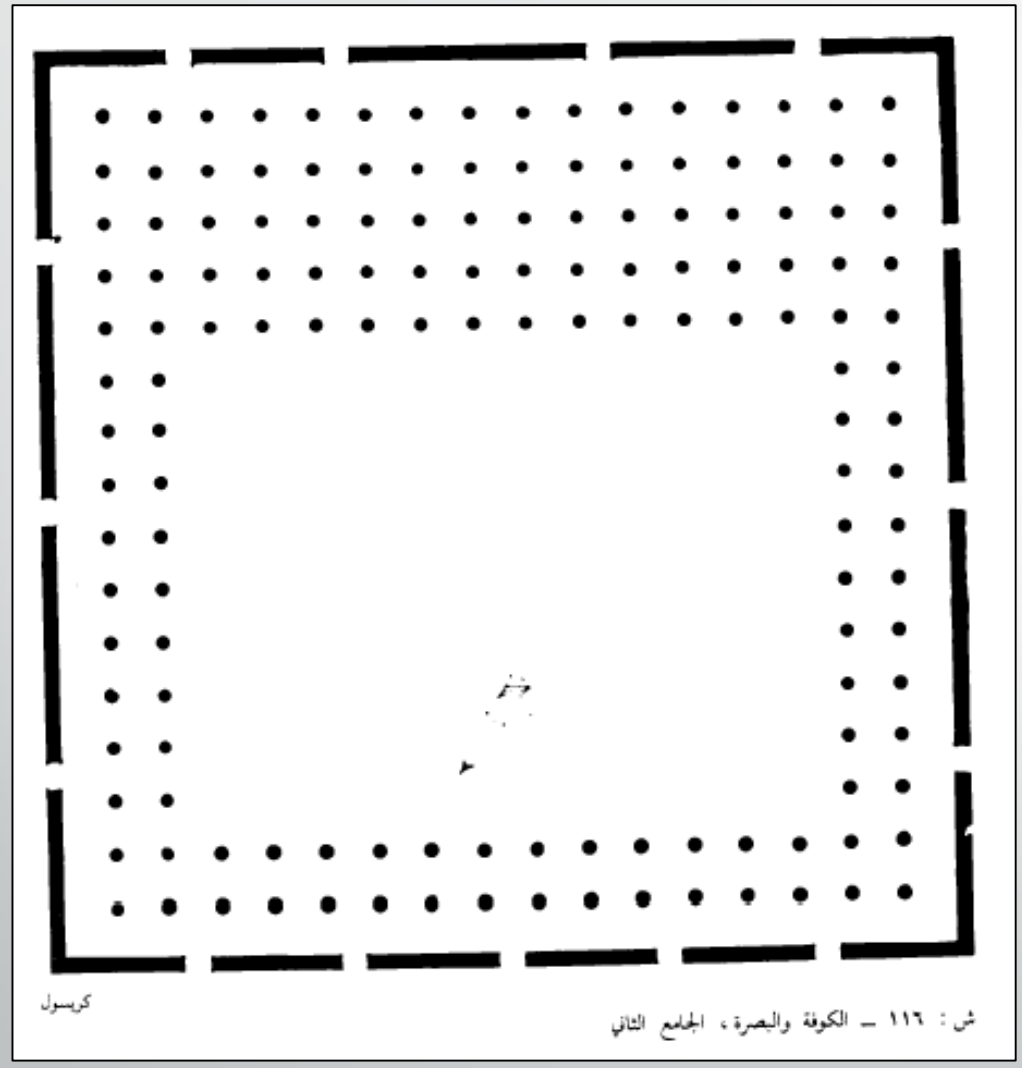

ش : ١١٦ ـ الكوفة والبصرة ، الجامع الثاني

كريسول

العمارة العربية الاسلامية في عصورها الوسيطة , القرن (4-9) هـ / (10-15) هـ

بقبة نصف كروية أو مدببة أو مخروطية[٢٨] وهي وثيقة الصلة بالمآذن والأضرحة بالعراق ، كما سيأتي شرحه .

ومن الخصائص البنائية والزخرفية التي انتشرت في نفس الوقت ما في العمارة السلجوقية من طرق التغطية بالقباب والأقبية الكروية المقسمة إلى مناطق هندسية مختلفة الأشكال بواسطة ضلوع أو عقود رفيعة تتقاطع وتتشابك لتنتج تلك المناطق المتنظمة الأشكال . وتوجد منها أمثلة رائعة في المسجد الجامع بأصفهان (ش : ٢٠١ ـ ٢٠٤) ، ويرجع البعض منها إلى العصر السلجوقي وبعض آخر إلى عصور تالية وحتى العصر الصفوي .

ومرة أخرى ، نجد اتفاقاً بين شرق العالم الإسلامي وبين غربه ، وذلك بين ما رأيناه من القباب في الأندلس التي تتكون من العقود الرفيعة التي تتشابك وتتقاطع لتحصر بينها الحشوات الموزعة توزيعاً هندسياً ، والتي كانت تملأ في الغرب الإسلامي بالشمسيات (ش : ١٩٠ ـ ١٩٥) بينما كانت تملأ بالآجر في فارس ، إما في مداميك متوازية أو في تكوينات هندسية صغيرة المقياس (ش : ٢٠١ ـ ٢٠٤) .

والأمر الذي يستلفت النظر ، أن الظاهرة السابقة ليست الوحيدة التي يشترك فيها الشرق الإسلامي وغربه دون وسطه ، فهناك ظاهرة ستراها في مآذن كل من الشرق والغرب الإسلاميين وهي استخدام الآجر في عمل تكوينات زخرفية ، كما سيأتي ذكره .

ثم يضاف إلى تلكما الظاهرتين ثالثة تتمثل في تغشية الجدران بالخزف الملون سواء كان ذلك على هيئة بلاطات صغيرة أو كبيرة ، أو على هيئة فسيفساء من الخزف ، وهو أسلوب بدأ في الانتشار في هاتين المنطقتين منذ النصف الأول من القرن ٧ هـ (١٣ م) ، وذلك بعد أن مهدت لها مراحل سابقة .

وهذه الظواهر الثلاث والكثير غيرها المشتركة بين المنطقتين تؤكد بغير شك وحدة التفكير عند المعماريين العرب المسلمين ولو كانوا في أقطار تقع في طرفين متباعدين من العالم الإسلامي ، كما تؤكد الصلات الوثيقة التي ظلت قائمة مترابطة بين بقاع ذلك العالم الكبير ، وأن وحدة الدولة العربية الإسلامية السياسية والحضارية والمعمارية والفنية قد استمرت فترة القرنين الأولين على الأقل ، ثم بقيت مستمرة في النواحي الحضارية والمعمارية حتى بعد أن أخذت الروابط السياسية في التفكك ، وأخذ القطر منها يستقل عن الخلافة العباسية بعد الآخر ، ثم تقوم أسرات تحكم واحداً منها أو أكثر ، وبخاصة في الغرب الإسلامي الذي تم انفصاله نهائياً منذ قيام الخلافة الفاطمية في إفريقية (تونس) ثم انتقالها إلى مصر بعد فتحها ، كما سبق ذلك قيام الخلافة الأموية الغربية في الأندلس .

ومما يستلفت النظر أن تلك الظواهر المشتركة بين الشرق والغرب الإسلاميين لا تشاهد في وسط ذلك العالم ، أي في المنطقة التي تضم الشام ومصر ، مع أن هذه المنطقة هي المعبر بينهما من قبل العصر الإسلامي .

وكان من الطبيعي والحالة هذه أن تتخذ العمارة طابعاً محلياً في كل قطر أو منطقة تضم أكثر من قطر ، ولكن على الرغم من ذلك فقد ظل الطابع العام متماسكاً لم يتحلل ولم يضعف ، وظلت طرق التفكير وملكة الابتكار موحدة ، أو على الأقل متقاربة متشابهة في عدة نواح من الجوهر ولو اختلفت التفاصيل ، ومهما

العمارة العربية الاسلامية في عصورها الوسيطة , القرن (4-9) هـ / (10-15) هـ

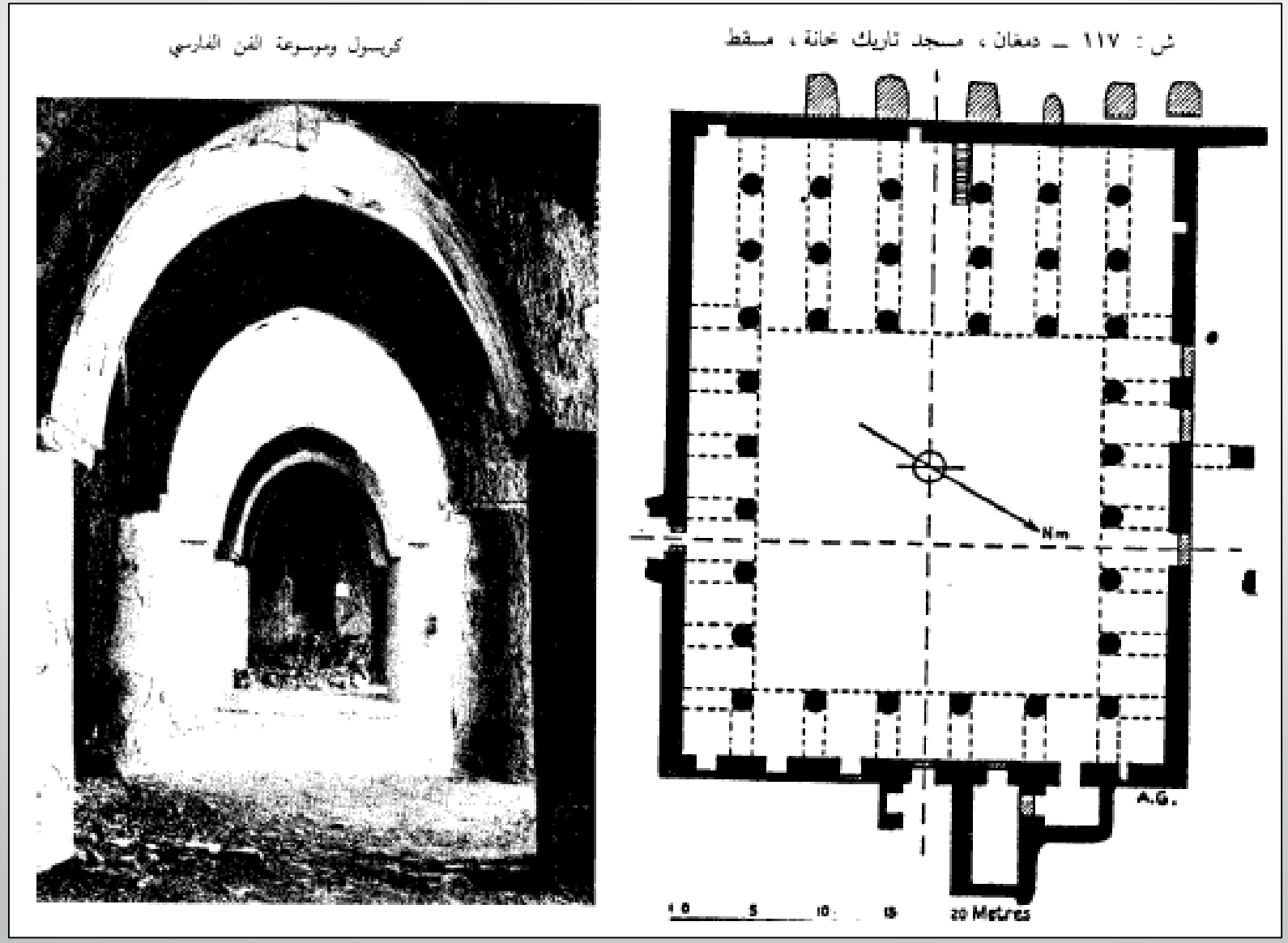

العمارة العربية الاسلامية في عصورها الوسيطة , القرن (4-9) هـ / (10-15) هـ

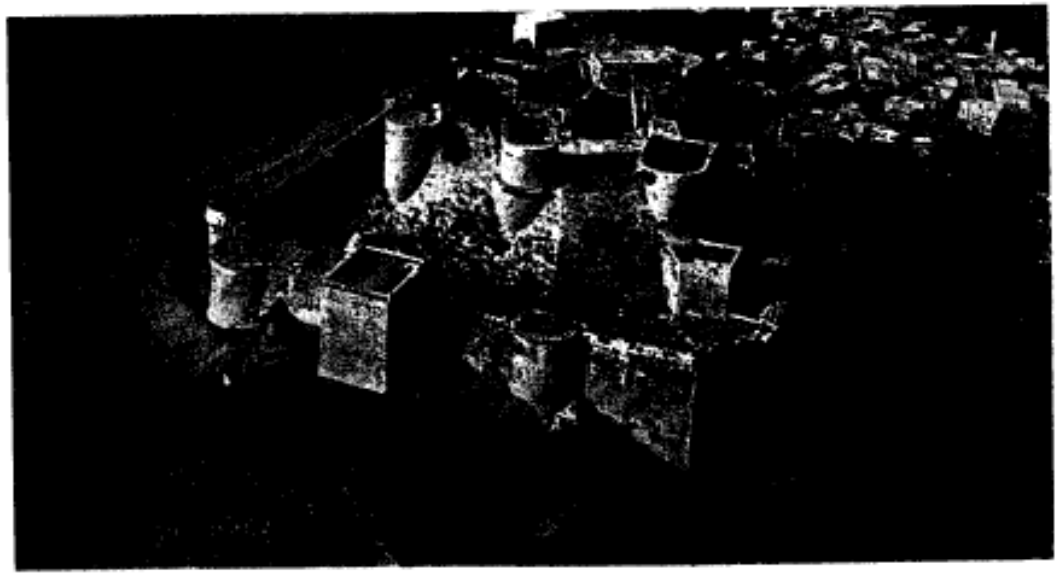

كشار ـ دمشق

ش : ١١٨ ـ الشام ، قلعة الحصن

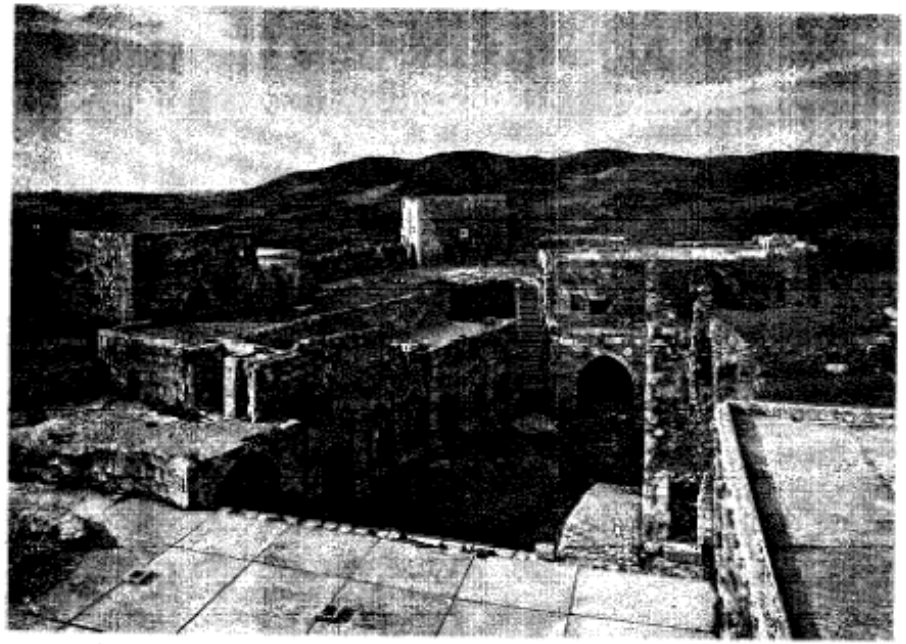

كشار ـ دمشق

ش : ١١٩ ـ الشام ، قلعة الحصن

العمارة العربية الاسلامية في عصورها الوسيطة , القرن (4-9) هـ / (10-15) هـ

بعدت الشقة وتناءت الأطراف سياسياً وجغرافياً ، كما هو واضح في الأمثلة التي ذكرناها وفي كثير غيرها .

* * *

ثم حل الأتابكة ومن بعدهم الأيوبيون ، الذين تولوا الحكم على بعض بقاع الشرق الأوسط . وبخاصة بنو زنكى ، لواء ذلك الحماس الديني المنشيع للمذهب السني فشيدوا المدارس في الشام على نظام الإيوانات مع عمل القاعة المقفلة في جانب القبلة مخالفين بذلك نظام إيوان القبلة الكبير الذي كان متبعاً في كل من فارس والعراق وآسيا الصغرى ومصر .

وامتد نشاط الأتابكة ومن بعدهم الأيوبيين أيضاً إلى بناء كثير من أنواع العمائر الأخرى على

بوجه خاص ، وبدأت أول حملة صليبية في نهاية القرن ٥ هـ (١١ م) . وتوالت الحملات الصليبية ، وأسفر اشتعال الحروب والمعارك والكر والفر من الطرفين عن ازدياد النشاط المعماري في بناء التحصينات وتشييد القلاع وتقوية القديمة منها وعلى أسس وتقاليد معمارية إسلامية ناضجة كانت معروفة راسخة منذ

نظام الإيوانات أيضاً مثل الخانقاوات والمارستانات وغيرها ، وبقيت منها أمثلة عدة مثل مدرسة وقبة نور الدين بدمشق (ش : ١٠٦) وتؤرخ في عام ٥٦٧ هـ (١١٦٢ م) .

* * *

ثم تأتي مرحلة من أهم المراحل التي مرت بها الحضارة والعمارة الغربية الإسلامية وهي التي وقعت في إبانها الحروب الصليبية التي دامت أكثر من قرنين .

فلقد اضطلع الأتابكة ثم الأيوبيون بالتصدي لنزعات الاستعمار وأطماع الأوروبيين الذين اتخذوا ستار الدين وسيلة للهجوم على وسط العالم العربي الإسلامي واحتلال الشام

العصور المبكرة ، وما زال الكثير من تلك التحصينات والقلاع منتشر في بقاع الشام ، ومن أشهرها قلعة الحصن أو حصن الأكراد (ش : ١١٨ و ١١٩)[٣] .

ومن أخطر النتائج المعمارية التي أسفرت عنها الحروب الصلبية أن حمل الصليبيون الكثير من المبتكرات الدفاعية والظواهر المعمارية

ش : ١٢٠ ــ مصر ، ضريح الإمام الشافعي ، واجهة

شافعي

العمارة العربية الاسلامية في عصورها الوسيطة , القرن (4-9) هـ / (10-15) هـ

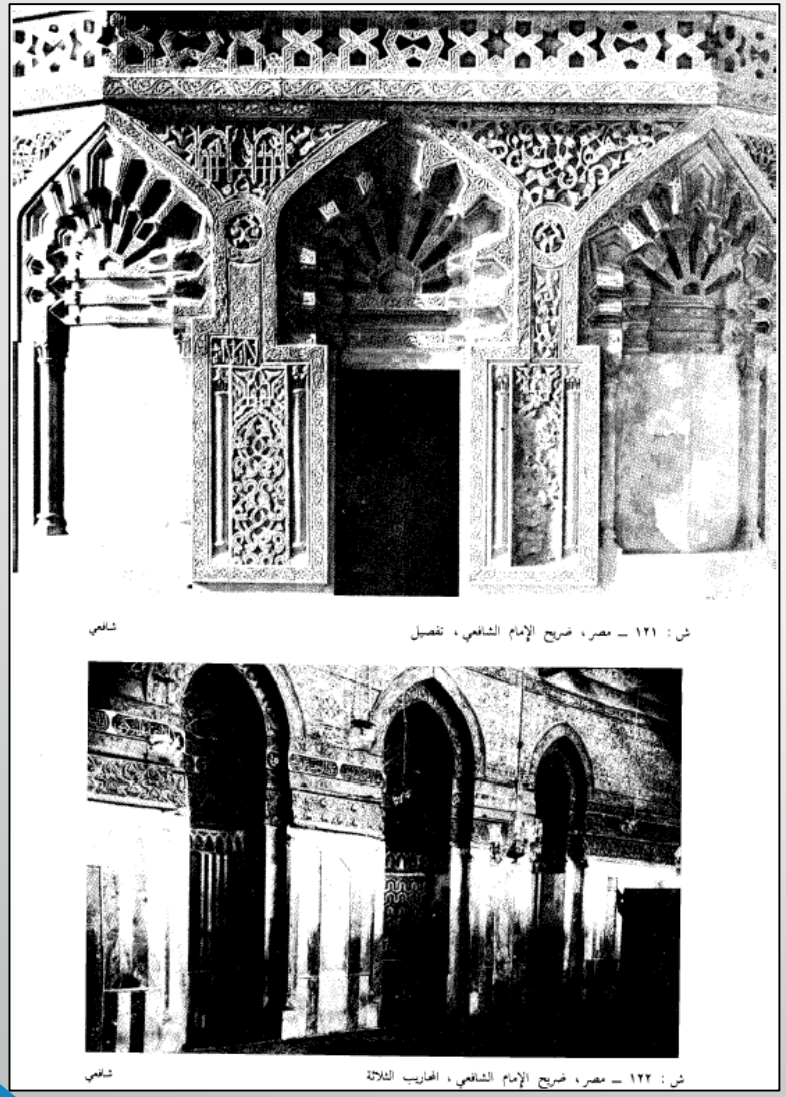

ش : ١٢١ ــ مصر، ضريح الإمام الشافعي، تفصيل

شافعي

ش : ١٢٢ ــ مصر، ضريح الإمام الشافعي، المحاريب الثلاثة

شافعي

ش : ١٢٣ ــ مصر، قلعة الجبل

كريسول

العمارة العربية الاسلامية في عصورها الوسيطة , القرن (4-9) هـ / (10-15) هـ

والإنشائية والمبتكرات والعناصر العربية الإسلامية إلى بلادهم ، وتولى حملها من قدر له منهم العودة سالماً إلى بلاده ، وكان من البدهي أن يؤثر ذلك على تطور العمارة في العصور الوسطى الأوروبية بل امتد ذلك أيضاً إلى طراز النهضة ، ووضعت في ذلك عدة أبحاث وما يزال ميدانها واسعاً مفتوحاً لمزيد منها .

واستمرت الحروب الصليبية مشتعلة في الشام مركزة فيها فترة تقرب من قرنين ، ثم مست ألسنة لهيبها البلاد المصرية في أواخر العصر الفاطمي ، ثم انحسرت عنها بعد أن عبدت الطريق للقضاء على الخلافة الفاطمية وقيام دولة الأيوبيين لتتولى حكم مصر والشام معاً . ومن ثم ، فقد حملوا لواء الدفاع عنها ضد موجات الصليبيين المتتابعة ، فأضافوا حلقات جديدة في تطور العمارة العربية الإسلامية في القطرين ، وزاد بذلك التقارب بينهما في نواح عدة .

* * *

ولم تدم دولة الأيوبيين طويلاً في الديار المصرية ، إذ لا تكاد تتجاوز فترتها ثمانين عاماً . ولكن على الرغم من ذلك فقد تركت تراثاً معمارياً له قيمته ، يتمثل في بقايا مدرستين هما : المدرسة الكاملية والمدرسة الصالحية وكلاهما في منطقة النحاسين التي كانت جزءاً من القصرين الفاطميين : الشرقي الكبير والغربي الصغير . وكان تخطيط كل منهما على النظام الذي سبق وصفه .

وبدأ صلاح الدين بناء أول مدرسة من ذلك النوع على أرض الديار المصرية بجوار قبر الإمام الشافعي[٢٠] ، واختفت آثار تلك المدرسة والضريح الذي كان ملحقاً بها للإمام الشافعي ثم أعاد بناءه السلطان العادل بعد ذلك ، وهو الضريح الذي ما زال قائماً حتى الآن بفضل العناية بتجديده وإصلاحه (ش : ١٢٠ و ١٢١)[٢١] . ولكن مما يستحق الذكر خاصاً بهذا الضريح أن اتجاه جدار القبلة فيه والذي به ثلاثة محاريب ، الأوسط أكبر من الجانبيين (ش : ١٢٢) قد حدث في تخطيطه خطأ حيث يقابل الاتجاه الجنوبي تماماً مثل اتجاه جدران

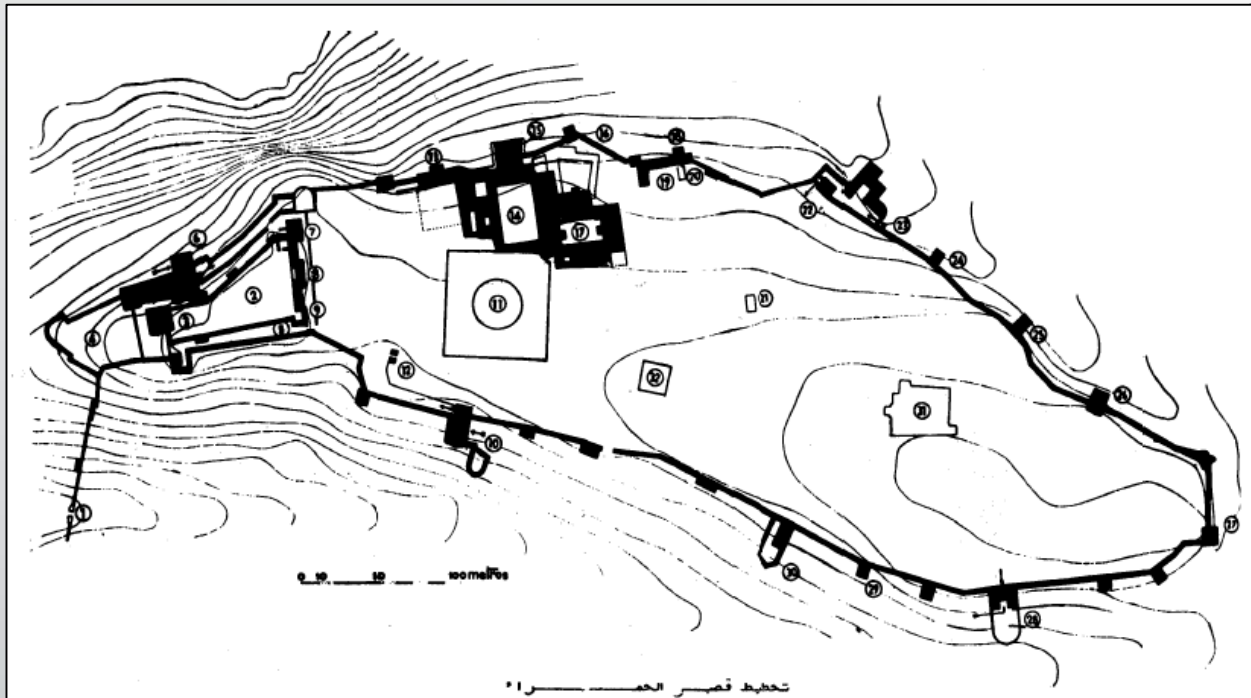

تخطيط قصر الحمـــــــراء

(١) الابراج الحمراء (٢) امبدان القصبة الحربى (٣) برج الشمعة (٤) الحصن (٥) الدربه اوالممر (٦) باب الحرب اوالفتوح (٧) برج السارية (٨) البرج المتكسر (٩) البرج المدرج (١٠) باب العدل (١١) قصر كارلوس الخامس (١٢) باب الكرم (١٣) برج ماتشوكا (١٤) فنا قمارش (١٥) برج قمارش (١٦) برج الزينة (١٧) فنا السباع (١٨) برج النساء (١٩) البرطل (٢٠) المعلى (٢١) خرائب قصر الكونت دى تندبلا (٢٢) برج العناقير (٢٣) باب الحديد (٢٤) برج القنديل (٢٥) برج الاسير (٢٦) برج الاطفال (٢٧) برج العياه (٢٨) برج الطباق السبعة (٢٩) برج العرقب (٣٠) برج الروس (٣١) موقع دير القديس فرانشسكو (٣٢) الحمام .

العمارة العربية الاسلامية في عصورها الوسيطة , القرن (4-9) هـ / (10-15) هـ

القبلة في الشام وليس الاتجاه الجنوبي الشرقي الذي يفرضه موقع مصر بالنسبة للكعبة المشرفة ، مما يدل على أن من قام بتخطيط الضريح كان من الشام وليس من مصر . ولا ندري متى تنبه الناس إلى هذا الخطأ في الاتجاه ، فقد وضع في الزاوية الجنوبية الشرقية من مربع الضريح محراب يعين الاتجاه الصحيح ، وهو محراب من الطراز العثماني ، وقد يرجع إلى ذلك العصر أو قد يكون تجديداً لمحراب وضع في ذلك المكان في عصر سابق .

ومنذ إتمام فتوح العرب في شمال إفريقية والأندلس واستقرار أعداد كبيرة منهم في القطاع الغربي من الدولة الإسلامية كانت فريضة الحج التي يتلهف المسلمون إلى تأديتها كلما سنحت الفرص وتهيأت لهم الأسباب التي تدفعهم إلى الوصول إلى الأراضي المقدسة عن طريق مصر براً وبحراً حتى ميناء الأسكندرية ، ثم الاتجاه جنوباً على شاطئ النيل إلى العاصمة الفسطاط ، أو في الزوارق في النيل ، ومنها إلى الجنوب حتى مدينة قوص شمالي الأقصر ، وكانت تعد عاصمة الصعيد ، ثم يعبرون منها الصحراء حتى شاطئ بحر القلزم أو البحر الأحمر الذي يعرف به الآن ، حيث كان هناك ميناء يعرف باسم ميناء عيذاب ومنها إلى ميناء على الشاطئ الشرقي لذلك البحر قريب من ينبع الحالية في الأراضي الحجازية .

وذكر ابن جبير طرفاً مما صادفه في رحلته إلى الحج ماراً بالأسكندرية التي وصلها عن طريق البحر ، كما ذكر كثرة أعداد المغاربة في مصر وإقامة بعضهم في جامع ابن طولون ، إلى غير ذلك من الأخبار[٦٢] .

ويهمنا من كل ذلك أن هناك تأثيرات معمارية من الغرب الإسلامي تبدو واضحة في آثار معمارية تعود إلى العصر العباسي بصفة مؤكدة وهناك بعض آخر قد يعود إلى ما قبل ذلك . وقد جمعنا ما أمكننا من تلك العناصر والظواهر والتفاصيل المعمارية في مقال لنا نشر باللغة الإنجليزية يوضح تتابع وصول موجات التأثيرات المعمارية الواحدة تلو الأخرى[٦٣] ، مما يعزز ما ذكرناه عن الترابط الذي لم ينقطع بين البلاد الإسلامية على الرغم من تفكك الرباط السياسي بينها . ونذكر منها ، على سبيل المثال ، الزخارف المحفورة في الجص في واجهات قاعدة قبة الإمام الشافعي (ش : ١٢٠ و ١٢١) ، وتشاهد فيها زخارف أندلسية ومنها نموذج التاج الأندلسي للأعمدة (ش : ٦٥ ـ ٦٨) .

وعلى الرغم من قصر فترة الدولة الأيوبية في مصر فقد ظهر في عمائرها عدد ليس بالقليل من تلك الظواهر المعمارية والزخرفية ، وما زالت باقية في المدرسة الكاملية وضريح الإمام الشافعي ومئذنة الباب الأخضر بجوار مسجد الحسين وجامع الصالح طلائع بجوار باب زويلة وغيرها .

* * *

ولكننا إذا اتجهنا نحو الشام التي كانت تربطها بمصر صلات حضارية وتاريخية وثيقة منذ آلاف السنين ، وزادت وثوقاً منذ الفتوح العربية ، فأغلب ظننا أن الحروب الصليبية التي دامت نحو قرنين وكانت الشام المسرح الرئيسي

العمارة العربية الاسلامية في عصورها الوسيطة , القرن (4-9) هـ / (10-15) هـ

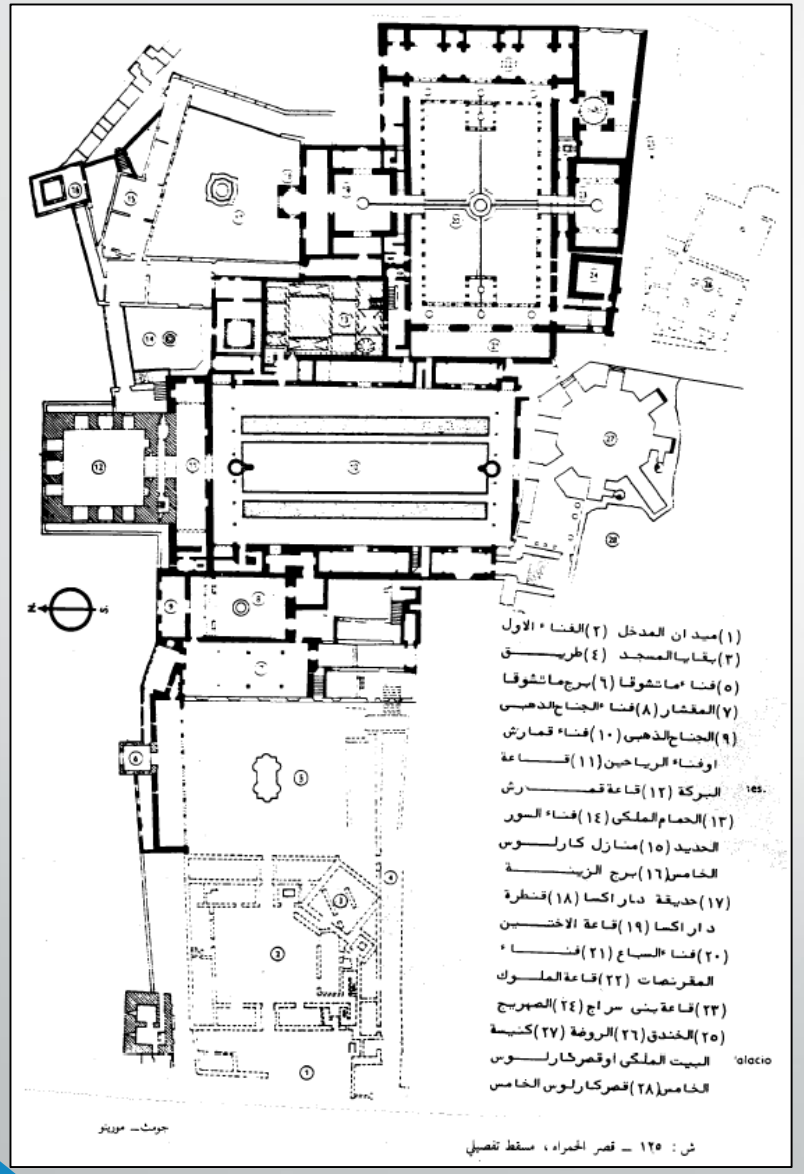

جومث ـ موريتر

ش : ١٢٥ ـ قصر الحمراء ، مسقط تفصيلي

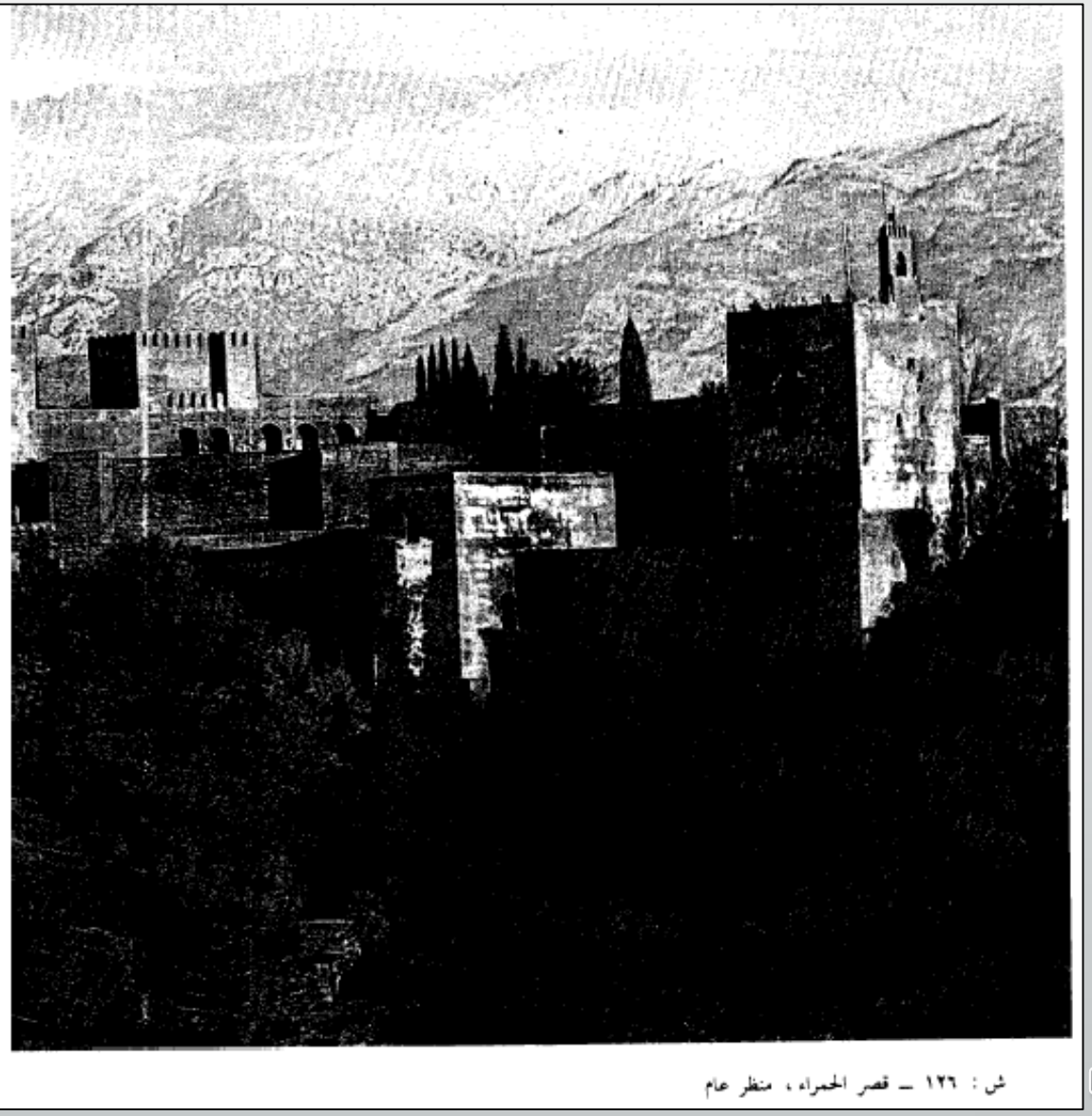

ش : ١٢٦ ـ قصر الحمراء ، منظر عام

العمارة العربية الاسلامية في عصورها الوسيطة , القرن (4-9) هـ / (10-15) م

لها قد تسببت كما سبق القول في اختفاء الآثار المعمارية التي تسبق عصر الأتابكة والأيوبيين . ومعظم العمائر الباقية هناك لا تعود إلى ما قبل فترة الحروب الصليبية . وهناك فراغ معماري وفجوة تفصل بين الآثار المعمارية التي تعود إلى العصر الأموي وبين الآثار التي يبدأ تاريخها من عصر الأتابكة والأيوبيين .

* * *

أما المشروع الثاني فهو بناء قلعة جديدة على هضبة ملاصقة لسور العاصمة ، وهي القلعة التي عرفت في كتب المؤرخين بقلعة الجبل وتعرف الآن بقلعة صلاح الدين (ش : ١٢٣)[٦٤] ، وما زالت أجزاء كثيرة منها باقية حتى الآن واضحة المعالم ، ثم أضاف إليها محمد علي قلعته التي تشرف على العاصمة وبنى فيها جامعه وقصره ، وهي التي تشاهد بسهولة

تكون مقراً حصيناً للسلطان وحاشيته وجنده وبخاصة في أيام الحروب الصليبية التي كانت مشتعلة في الشام في ذلك الوقت ومست الديار المصرية كما سبق ذكره ، بالإضافة إلى أخطار الفتن التي قد يثيرها أنصار الدولة الفاطمية التي قضى عليها صلاح الدين .

ووقع الاختيار على موقعها فوق هضبة من المقطم تتمتع بمميزات حربية وتشرف على العاصمة مصر الفسطاط وتكشف عن أحيائها كلها تقريباً .

وما كاد صلاح الدين ينجح في القضاء على الخلافة الفاطمية وينصب نفسه سلطاناً على مصر ويؤسس الدولة الأيوبية حتى بدأ مشروعين معماريين كبيرين ، كان أحدهما إحاطة مدينة مصر العاصمة بسور يحميها من جميع الجهات ، بحيث تشمل حصن القاهرة الذي أصبح بذلك خطة أو حياً من أحياء العاصمة بعد أن كان بعيداً عنها بنحو كيلومترين إلى الشمال منها .

من نواحي متعددة من العاصمة ، بينما لا ترى قلعة صلاح الدين إلا من الجهة الخلفية ، أي من جهة شارع صلاح سالم ، ومن الواضح أن محمد علي قد اقتطع من قلعة صلاح الدين المنطقة التي خصصها لقلعته ، بدليل وجود بئر يوسف الذي حفر في أيام صلاح الدين داخل قلعة محمد علي وليس بداخل قلعة الجبل .

وكان الهدف من تشييد قلعة الجبل أن

ولم يتبع في تخطيطها نظاماً هندسياً ، بل سار على النظام التقليدي المتعرج الذي جرت العادة على تخطيط القلاع والحصون عليه في جميع العصور وليس في العصر الإسلامي فحسب ، والذي يخضع للتكوينات الطبيعية للموقع من حيث المرتفعات والمنخفضات ، ومن حيث صلابة الترية في المواضع المختلفة وصلاحيتها لتحمل أوزان جدران الأسوار والأبراج وتقاوم عوامل التخريب من الأعداء .

وكانت أسوار القلعة تتصل بأسوار

ش : ١٢٧ ــ قصر الحمراء ، منظر داخلي

مجلة الفيصل

العمارة العربية الاسلامية في عصورها الوسيطة , القرن (4-9) هـ / (10-15) هـ

العاصمة مصر الفسطاط والتي ذكرنا أنه أحاطها من جميع جهاتها حتى الجانب الغربي منها بحذاء شاطئ النيل والذي زالت معالمه بسبب الفيضانات السنوية المتكررة على مدى القرون المتتالية .

وذكر الرحالة ابن جبير ، الذي زار مصر في أيام صلاح الدين ، أن قراقوش وزيره الذي اضطلع ببناء أسوار المدينة وأسوار القلعة قد استخدم في البناء عدداً كبيراً من أسرى الصليبيين[٦٥] .

ودعمت أسوار العاصمة وقلعة الجبل بالأبراج القوية التي كان بعضها يتميز بأوجه مستديرة وبعض آخر بأضلاع متعامدة .

وامتازت الأبواب في جميع تلك الأسوار بأنها كانت من نوع الباشورة[٦٦] ، أي النوع ذي الانعطافات ، والذي سبق أن ذكرنا مثلاً منه هو الباب الجديد (ش : ٩٨ و٩٩) في السور الشرقي من حصن القاهرة الفاطمي ، والذي ما يزال باقياً من أعمال صلاح الدين أيام أن كان وزيراً للخليفة الفاطمي وقبل أن يقضي عليه وينهي بذلك حكم الدولة الفاطمية ، ولا نشك في أن نوع الباشورة قد وصل إلى مصر مع قدوم صلاح الدين .

وكان المدخل الرئيسي لقلعة الجبل هو الباب المدرج الذي لم يزل باقياً متكاملاً ، غير أن المدخل الحالي المستعمل للدخول إلى المنطقة الباقية من قلعة الجبل هو المعروف بباب القلعة الذي شيد قبل اقتطاع محمد علي للمنطقة التي جعلها قلعة له .

وبالإضافة إلى الباب المدرج فقد كانت هناك عدة أبواب لقلعة الجبل بقيت معالمها واضحة إلى درجة لا بأس بها ، ومنها باب القرافة أو برج الإمام ، ومنها برج المطار ، وجاء ذكره في المراجع التاريخية بأن أبراجه كانت تحفظ فيها مجموعات الحمام الزاجل الذي كان ينقل الرسائل بين مصر والشام في أيام المعارك مع الصليبيين[٦٧] .

ومن الجدير بالذكر ، أن السور الشرقي للعاصمة والذي كان يبدأ طرفه الجنوبي من شاطئ النيل عند الموضع المعروف الآن بدار السلام ويمتد حتى يتصل بأسوار قلعة الجبل ، هذا الجدار قد جعل السلطان العادل أبو بكر فوقه قناة يرفع الماء إليها بالسواقي من النيل ، ويسيل فيها حتى يصل إلى قلعة الجبل ، وذلك عندما استقر رأيه على الإقامة الدائمة في القلعة بدلا من حصن القاهرة التي اضطر إلى سكناها من سبقه من السلاطين الأيوبيين ، وذلك عندما تبين أن ماء بئر يوسف الذي حفر بأمر صلاح الدين ووصل عمقه إلى نحو ٨٠ متراً في الصخر الأصم لا تتمتع مياهه بالعذوبة الكافية التي تشجع على استعماله لأغراض المعيشة المريحة .

* * *

ثم ثار إعصار المغول نابعاً من أواسط آسيا ، وتدفق منها إلى الغرب ، واكتسح أهم مناطق ومدن فارس والعراق في قسوة وعنف بالغين . ودمر المغول وأحرقوا وأعدموا ما صادفهم في طريقهم من بشر وعمران ، ولم يسلم من هذا الدمار والخراب إلا النادر القليل . واختفت معالم معمارية وحضارية وفنية

العمارة العربية الاسلامية في عصورها الوسيطة , القرن (4-9) هـ / (10-15) هـ

لا تقع تحت حصر ، وأحدثت خسائر لا تعوض ولا تقدر بمال .

وتجاوز المغول بلاد فارس إلى العراق وفعلوا بها مثل ذلك وأكثر ، فأوقعوا بها البلاء وبخاصة بمدينة بغداد التي أبادوها وأحرقوها عن آخرها بما كان فيها من الكنوز والنفائس والمعالم المعمارية والفنية والحضارية ، ومثلوا بالناس ممن

والناس المدافعين عنها ، مما جعل المغول ينفثون عن غضبهم بتدميرها سواء كانت عمائر حربية أو مدنية ، ولم ينج من ذلك سوى المباني الدينية من مساجد ومدارس وقبور فحسب ، مع العلم بأن المغول قد طرقوا أبواب عدة مناطق من الشام واستولوا على بعض البقاع والمدن فيها حتى أوقفهم المماليك وأجلوهم عن الشام كلها

لم تساعدهم إمكاناتهم على الفرار .

ولكن هناك ظاهرة تستحق الإشارة إليها وهي أنه لم يصلنا آثار من قلاع أو تحصينات مدن من العصر السلجوقي من فارس والعراق ، بينما بقي الكثير من أمثلتها في منطقة الشام ، ويمكننا تفسير ذلك بأن المغول قد دمرا ما كان قائماً منها في تلك البقاع بسبب مقاومة الحاميات

وذلك في المعركة الفاصلة في مرج دابق . ولو طبقوا مبدأ التدمير المعروف عنهم لما سلمت تلك العمائر الحربية وغيرها من الخراب .

وأقرب تعليل إلى ذهننا لهذا الأمر يتمثل في عدة عوامل ساعدت على نجاة تلك العمائر في الشام ، منها أن إعصار المغول قد هب بطريقة تكاد تكون مفاجئة حيث اندفعت في

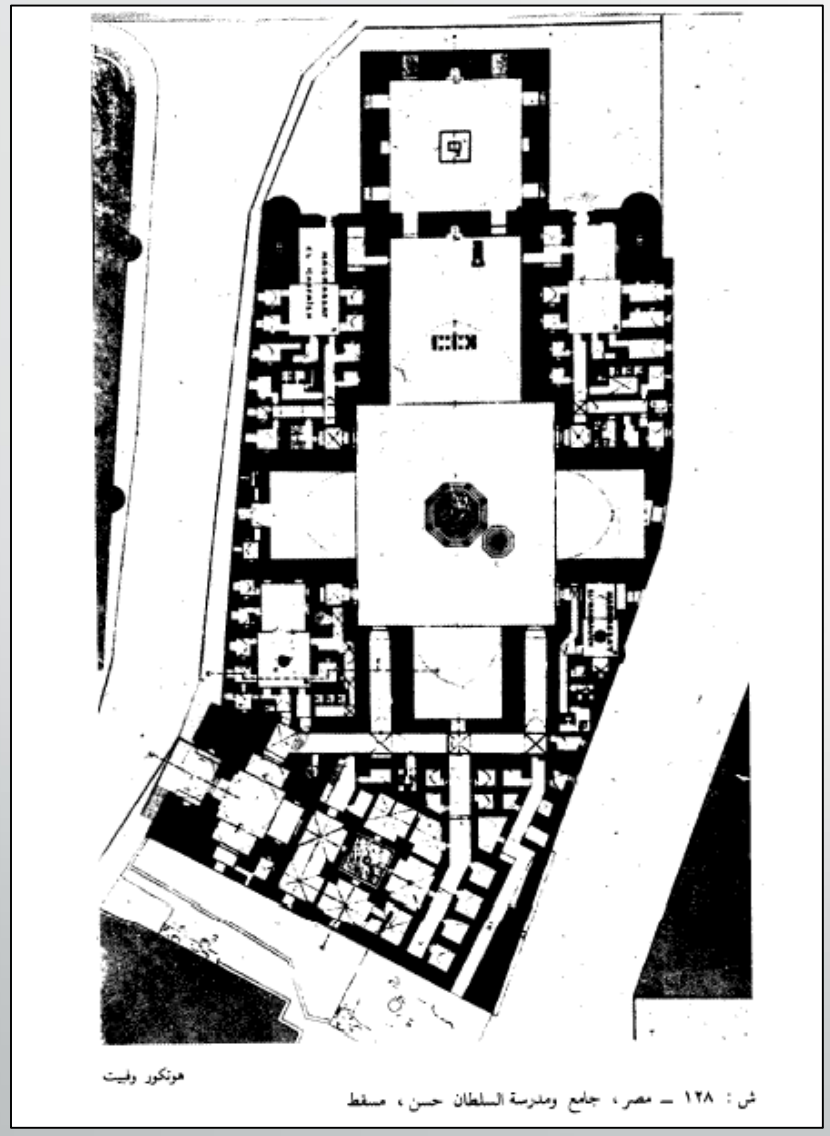

هونكور وفيت

ش : ١٢٨ ــ مصر ، جامع ومدرسة السلطان حسن ، مسقط

العمارة العربية الاسلامية في عصورها الوسيطة , القرن (4-9) هـ / (10-15) هـ

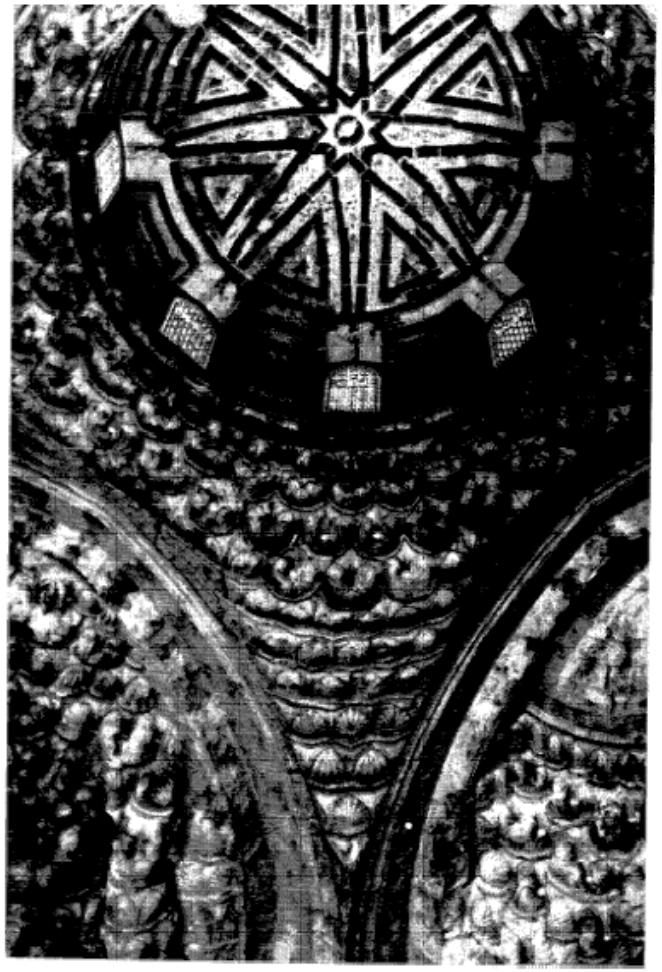

شافعي

ش : ١٢٩ ــ مصر ، جامع ومدرسة السلطان حسن ، سقف المدخل

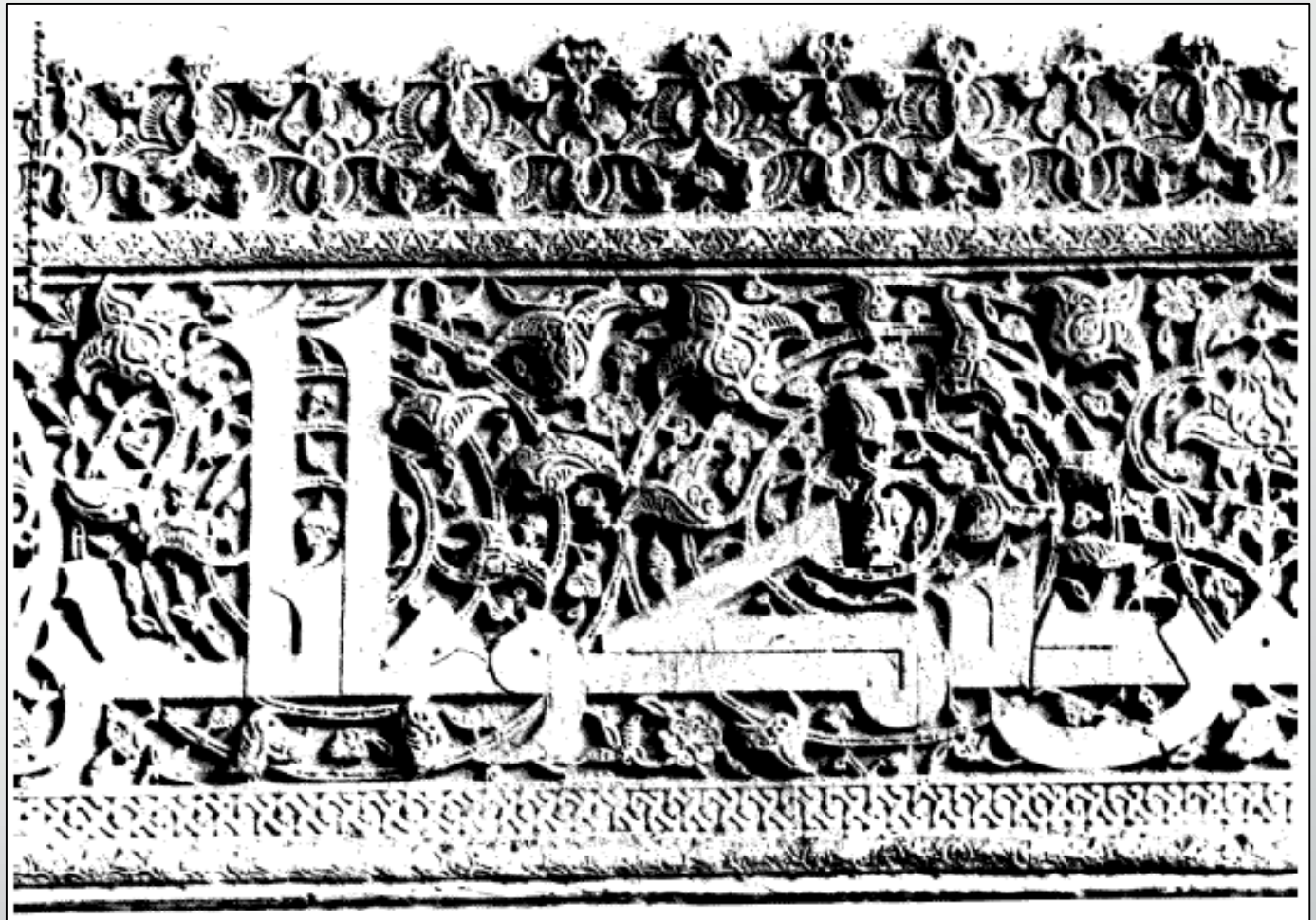

شافعي

ش : ١٣٠ ــ مصر ، جامع ومدرسة السلطان حسن ، شريط كوفي

العمارة العربية الاسلامية في عصورها الوسيطة , القرن (4-9) هـ / (10-15) هـ

سرعة كبيرة لم تترك لأهل منطقة فارس والعراق فرصة كافية للصمود أمام ذلك الاعصار .

وأن الخليفة العباسي في بغداد قد أصبح من الضعف بحيث لم تكن لديه إمكانات من المال والجيوش ما يسمح له بالصمود أمام جحافل المغول .

وأن السلاجقة الذين كانت بيدهم السلطات الحقيقية والنفوذ قد وصلوا إلى درجة من الترف والاسترخاء جعلتهم لا يقدرون مبلغ قوة وعنف ذلك الإعصار ، لا في الوقت الذي بدأ فيه ولا بعد أن تدفق على بلادهم .

وأن ما حدث في فارس والعراق قد وصلت أنباؤه ، مع من قدر له الفرار ، إلى مصر والشام ، وكانا مرتبطين ببعضهما البعض أشد الارتباط ، ومن ثم تنبهت الأذهان إلى ما ينتظرهم من أهوال وكوارث إذا ما نجح المغول في اكتساح الشام ومصر من بعدها .

وأن أهل الشام بالذات وحكامها كانوا في حالة حرب مستمرة منذ أكثر من قرن ونصف مع الصليبيين وكانوا في حالة تأهب مستمر ، وكانت تتوفر لديهم وسائل قوية للدفاع ومقاومة ذلك الإعصار ومنها الخبرة والمران في القتال والدفاع ، وكانت تحت أيديهم الحصون القوية التي كانت تجدد ويزاد عليها مع ازدياد شدة الحروب الصليبية .

كل ذلك ، قد ساعد على نجاة الديار الشامية والمصرية من تلك الأخطار الداهمة ونجاة أمثلة من روائع العمارة العربية الإسلامية .

* * *

وكانت هناك نواح أخرى للإعصار المغولي ، من أهمها أن المدرسة المعمارية السلجوقية التي كانت مزدهرة في فارس والعراق والتي لم تترك عاصفة المغول إلا النادر منها الذي بقي متماسكاً أو البعض الآخر الذي بقيت خرائبه ، تلك المدرسة لم يفلح المغول في القضاء عليها ، إذ نبتت بديلة لها في آسيا الصغرى وعلى أساس تقاليد ومفاهيم المدرسة القديمة التي حملها معهم المعماريون والفنانون الذين نزحوا من موطن المدرسة الأصلي إلى المهجر الجديد ، وجعلوا من ذلك بذرة طيبة أنبتت المدرسة السلجوقية في تلك البلاد التي كانت قديماً من أملاك الامبراطورية البيزنطية .

وكان من المنتظر أن تظهر رواسب وتأثيرات على المدرسة الجديدة من رواسب لعلها كانت مختزنة فيها من العصر البيزنطي ، إلا أن المدرسة السلجوقية الجديدة قد نمت وازدهرت وهي تتميز بكل الخصائص النقية للعمارة الإسلامية ، والتي تتجلى في وضوح في العمائر الباقية هناك من مدارس ومساجد وغيرها ، ويوجد منها عدد لا بأس به في مدن قونية وسيواس وديوريكي وغيرها .

فمنها في مدينة قونية عاصمة السلاجقة الروم جامع علاء الدين قيقباذ الذي شيد في ما بين سنتي ٦١٥ و ٦٣٤ هـ (١٢١٨ و ١٢٣٦ م)[٣٨] ، ومنها مدرسة سرتشلي وتؤرخ في سنة ٦٤٤ هـ (١٢٤٦ م)[٣٩] ، ومدرسة قره طاي وتؤرخ في ٦٤٩ هـ (١٢٥١ م)[٤٠] وهي

العمارة العربية الاسلامية في عصورها الوسيطة , القرن (4-9) هـ / (10-15) هـ

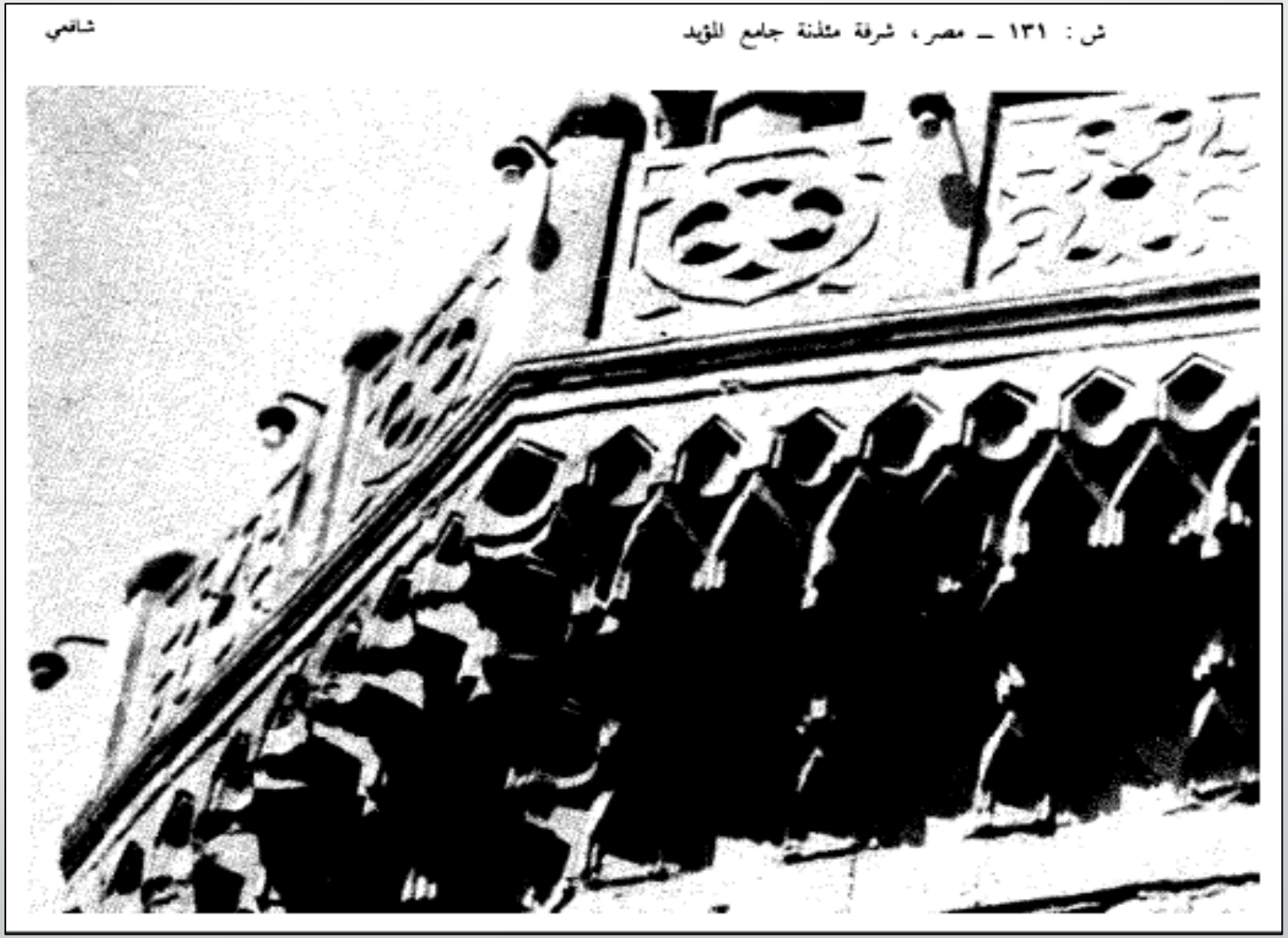

ش : ١٣١ ــ مصر ، شرفة مئذنة جامع المؤيد شافعي

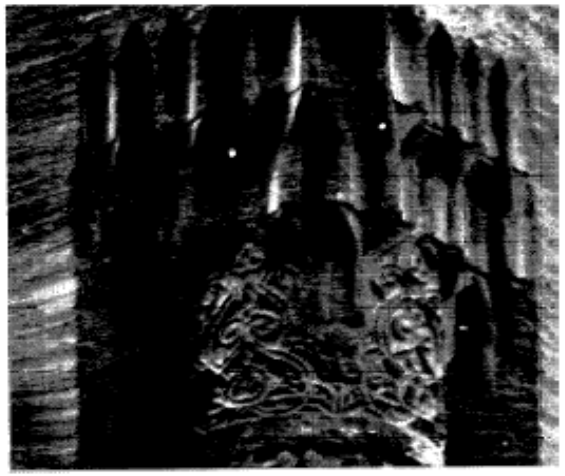

: ١٣٢ ــ مصر ، تاج عمود من مقرنصات شافعي

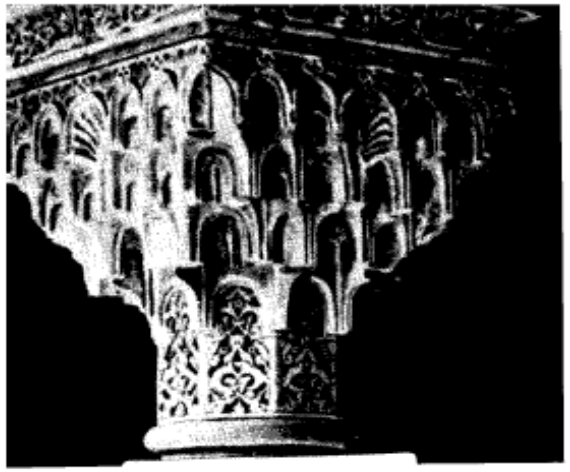

ش : ١٣٣ ــ غرناطة ، تاج عمود من مقرنصات جومث ــ مو

العمارة العربية الاسلامية في عصورها الوسيطة , القرن (4-9) هـ / (10-15) هـ

تمتاز بأن إيوان القبلة فيها قد غطي بقبة ، ومنها مدرسة منارة انديشي (ش : ١٠٩ - ١١١)[٧١] . كما شيد بجوار قونية فندق أو مسافر خانة تدعى خان في حوالي سنة ٦٣٧ هـ (١٢٣٩ م)[٧٢] .

ومن الجدير بالذكر ، أن ذلك الطراز السلجوقي كان أساساً للعمارة التركية بعد أن أسس الأتراك دولتهم فيها ، وإلى أن قامت دولة العثمانيين وحتى فتحهم للقسطنطينية ومن بعدها لأقاليم جنوب أوروبا واستيلائهم على الشام ثم مصر ، ثم على إقليم شمال إفريقية حتى حدود الجزائر غرباً ، غير أنهم عجزوا عن ضم منطقة فارس والعراق ، فقد حال دون ذلك دولة الصفويين التي كانت في أوج قوتها في ذلك الوقت ، وكانت أصفهان حاضرة لهم بدلا من سمرقند التي كانت حاضرة التيموريين .

وقد أنتجت تلك الفتوح العثمانية تحولا خطيراً في تطور العمارة العربية الإسلامية منذ ذلك الوقت ، أصاب أصالتها ونقاءها بأشد هزات صادفتها في تاريخها الطويل .

* * *

ونعود لنستعرض ما حدث في تلك المنطقة الشرقية من العالم الإسلامي من تطورات حضارية ومعمارية بعد هدوء عاصفة المغول .

فمنذ أن قنع المغول بأن يكوّنوا دولتهم في تلك المنطقة ، لم يجدوا موقعاً أفضل من مكان بغداد التي أحرقوها ودمروها من قبل ، ومن ثم فإنهم أخذوا في إعادة بنائها وتعميرها مرة أخرى ، وحافظوا بذلك على التقليد الذي كان سائداً منذ آلاف السنين قبل الأخامينيين الفرس وهو أن تكون حاضرة الدولة الحاكمة لتلك المنطقة على أرض العراق ، ولم يخرج عن هذه القاعدة سوى الأخامينيون الذين اتخذوا من مدينة پرسپوليس حاضرة لهم وهي قريبة من مدينة شيراز الحالية . ولكن ما كاد الأسكندر ينجح في القضاء على الدولة الأخامينية حتى عادت الحاضرة بعد قرنين فقط إلى العراق وعلى نهر دجلة كالعادة ، وذلك في أيام السلوقيين ولاة فارس والعراق من قبل الاسكندر ، أي عادت العراق الأرض المفضلة لقيام عواصم الدول التي تعاقبت على حكم القطرين ، وكان منهم البرثيون الذين أسسوا المدائن حاضرة لهم ثم للساسانيين من بعدهم ، وإلى أن أسس العباسيون مدينة بغداد على مسافة قريبة منها ،